الألحان الطقسية في كنيسة المشرق الكلدانية

الشماس: نوري إيشوع مندو

لم أعطي هذا المقال حقه بسبب قلة المصادر التي أملكها بخصوص الألحان الطقسية. وقد اعتمدت على ثلاث مقالات للأب فيليب هيلايي[1] الذي كان له باع طويل في ألحان كنيسة المشرق، وقد نشرها في مجلتي نجم المشرق وبين النهرين.

تأثرت الألحان الطقسية في كنيسة المشرق بالمجمع اليهودي وصلواته وألحانه، كما تأثرت بالألحان التي كانت سائدة أنذاك بين شعوب ما بين النهرين من بابلية وأشورية وفارسية وغيرها. وبعد تأثير وتأثر واقتباس وابتكار كونت لها شخصية مستقلة. فقد أقتبس المسيحيون في بلاد ما بين النهرين ألحان صلواتهم وطقوس عباداتهم من البيئة التي ولدوا وعاشوا فيها: الدينية والثقافية والإجتماعية، وشيئاً فشيئاً ظهرت ألحانهم بأوزانها وإيقاعها وسلالمها الجديدة والمتميزة. فالحان كنيسة ما بين النهرين لها أسلوبها وطابعها وخصوصيتها.

ولكي نفهم الألحان في كنيسة المشرق علينا أن نبعد عنها ما هو حديث ومقتبس من الغرب، ونبحث عن القديم والأصيل. فالموسيقى في كنيسة المشرق تؤدى بسطر واحد، أي بصوت واحد. ولم يكن فيها تعدد للأصوات أو الألحان، فلم يكن فيها أصوات توافقية أو طباقية. ولم ترافق التراتيل آلات موسيقية عدا الصنج. أما دخول الأورغن وبقية الآلات الموسيقية فهو حديث جداً.

ولم يكن في كنيسة المشرق قديماً فرقة تراتيل أو كورال. فالكورال بعيد كل البعد عن ألحان كنيسة المشرق، لأن هذه الألحان شعبية يؤديها الشماس أو مجموعة شمامسة أو الشعب برئاسة المحتفل. وبما أن هذه الألحان شعبية فهي بسيطة جداً لأن أبعادها الموسيقية متقاربة وسهلة الأداء، وتمتاز بروحية خاصة تجعل المؤمن يرفع قلبه وأفكاره إلى الله.

إن ترتيل كلمة " آمين " أو " آمين بارخمار " هي عظيمة وجميلة جداً. إن امتداد لحن كلمة " آمين " يعود إلى القرن الأول الميلادي وبقيت حتى اليوم.

وكانت ولا زالت الكلمة الأولى المستعملة في الصلوات مستقاة من الكتاب المقدس، وبعدئذ نبعت من كتابات أدباء وشعراء عظام كتبوا الصلوات ونظموا الشعر والقصائد أمثال مار أفرام النصيبيني[2] ومار نرساي النوهدري[3] والجاثليق مار شمعون برصباعي[4] وماروثا الميافرقيني[5] ويعقوب السروجي[6] وغيرهم كثيرون، والكلام كان مرتل دائماً.

وفي حين أن الكنيسة الغربية تؤدي القداس الإلهي البسيط بدون لحن، لكنها ترتل القداس الاحتفالي. أما كنيسة المشرق ومنذ القرن الأول وما تزال ترتل القداس البسيط والقداس الاحتفالي معاً. وكذلك صلوات الفرض اليومية، وحتى المزامير فإنها تؤدى بنبر معين وحتى بلحن بسيط.

ومن خلال الانتشار الواسع لكنيسة المشرق أرضاً وتاريخاً، ظهرت عدة تقاليد لحنية أهمها: آمد[7] " ديار بكر "، وألقوش[8] في شمال العراق، وكاتدرائية الشهيدة مسكنتة في الموصل[9]، والدير الأعلى " الطهرة " في الموصل[10]، وبلاد فارس.

وتنقسم الأشكال اللحنية في كنيسة المشرق إلى قسمين رئيسيين هما: 1_ النثر. 2_ الشعر.

1_ النثر: هناك العديد من الصلوات المنثورة المرتلة نذكر منها:

أ _ الصلاة الربية: تؤدى بلحن بسيط جداً يتألف من نغمات متقاربة ومعادة، لكن فيها أحتفالية وأبهة.

ب_ نشيد الشكر: (لاخو مارا) ترتل بعدة ألحان حسب الزمن الطقسي.

ج_ قدوس الله: (قديشا ألاها) ترتل بعدة ألحان حسب الزمن الطقسي.

د_ الترتيل بجوقين: يذكر أن الجاثليق مار شمعون برصباعي هو الذي قسم المرتلين إلى جوقين. ودعي الجوق الأول كودا قذمايي، ودعي الجوق الثاني كودا دأحرايي.

وفي القرن السابع قام البطريرك إيشوعياب الحديابي[11] بتنظيم الصلوات الفرضية التي تؤدى حتى اليوم، وقسم صلوات الفرض إلى أسبوعين، أي الأسبوع الأول والأسبوع الثاني، لكي يتناوب المؤمنون في أداء التراتيل.

ه_ المزامير: تحتل المزامير المكان الأول في رتب العبادة، وتؤدى بدون لحن أو بلحن بين شماسين أو بين جوقين.

2_ الشعر: إن العناصر التي تُبنى عليها تراتيل كنيسة المشرق هي: المزامير والقصيدة الدينية ونصوص الصلوات وقراءآت مختارة من الكتاب المقدس.

أ_ القصيدة الدينية: نستطيع تمييز جنسين من الشعر الديني الكنسي. فالأول يتصل بالمزامير، والثاني يستقل عنه.

فالجنس الأول الذي يتصل بالمزامير يظهر تحت شكلين أو صيغتين هما:

1_ الشكل الأول: يكون العنصر المزموري هو المسيطر، ويتمثل هذا التغير في صيغته البسيطة والمعروفة بـــ قانونا " قانوني " وهي عبارة عن ردات أو لازمات شعرية تقال بعد البيت الأول، أو البيتين الأولين من المزمور، ثم تعاد في نهايته. وقد تؤدى الردات بعد كل آية أو آيتين منه، أو تسبق المزمور مثل قالتا " أنشودة صغيرة "، أو كيورى " غريب ".

2_ الشكل الثاني: تكون القصيدة هي العنصر الرئيس. فعندما تخطت القصيدة هذه المرحلة برزت وتطورات. فأصبحت ال عونيثا " أنشودة " متركبة من آية واحدة من المزمور، وبيت شعري واحد أو بيتين.

أما الجنس الثاني من الشعر فهو مستقل أصلاً عن المزمور، فهو ليس وليد تطور الردات أو اللازمات المزمورية. وتتسم هذه القصائد المستقلة بصيغ مختلفة هي: مدراشا " تعليم "، سوغيثا " ترنيمة على هيئة حوار "، تشبوحتا " تسابيح "، هباختا " جواب "، لباختا " ملحق "، عونيثا " نشيد ".

وفيما يلي أمثلة عن بعض هذه القصائد:

1_ تسابيح " تشبوحتا ":

* شوحا لرحميك " المجد لمراحمك " ترتل في زمن تقديس البيعة. إيقاعها 3 / 4 المقام عجم.

* بريخ حنانا " مبارك الحنان " ترتل في زمن البشارة والميلاد. إيقاعها 3 / 4 المقام جهاركار.

* بحشا وذمعي " بالحزن والدموع " ترتل في زمن الباعوثة (صوم نينوى) والصوم الكبير. إيقاعها 11 / 8 المقام بيات.

* مارن إيشوع " يا ربنا يسوع " ترتل في قداديس أيام الآحاد والأعياد. إيقاعها 11 / 8 المقام حجاز.

2_ نشيد " عونيثا ":

* ليلدا تميها " لنسبح الملك العظيم " ترتل في عيد الميلاد.

* ملكى بنى ملكى " الملوك أبناء الملوك " ترتل في عيد الميلاد.

* مشيحا إثيليذ " المسيح ولد " ترتل في عيد الميلاد.

* حزاو لا تحطون " لا تعودوا تخطأون " ترتل في صوم نينوى.

* أينا داثى لواعوثة " الآتي للباعوثة " ترتل في صوم نينوى.

* تاو نتوي هاركا " هلموا نتوب " ترتل في صوم نينوى.

3_ تعليم " مدراشا ": اقتبست كنيسة المشرق شكل المدراش من اليهودية.

وقد برع بوضع كلماتها مار أفرام ومار نرساي. ويغلب على هذا الشكل الموسيقي طابع الارتجال. فالاداء يكون المزاج الآني للمؤدي، إذ ينطلق المؤدي بالترتيل بدون وزن إيقاعي. يبدأ الرئيس المحتفل أو الشماس بالردة، يردها بعده الجوقان سوية. ثم يعود الشماس بترتيل الأبيات، ليعيد الجوقان الردة بعد كل بيت.

وفي المداريش أفكار سامية، وخيال خصب، وأسلوب رقيق. تمجد العزة الإلهية، وترفع الإنسان بأفكاره وعواطفه إلى الله، وتعلمه العقائد الإيمانية، وتحرضه على التوبة وطلب الغفران والصلاة والصوم. وتزيده إيماناً ورجاء ومحبة لله. وتمدح القديسين وشهداء الإيمان بذكر فضائلهم وعجائبهم وبطولاتهم.

وتقسم مواضيع المداريش إلى المناسبات التالية: 1_ الأعياد المارانية (الربانية). 2_ تذكار الشهداء القديسين. 3_ الآحاد التي تلي الأعياد الكبرى. 4_ التوبة والإستغفار. 5_ صلوات الموتى المؤمنين.

ولكل مدراش وزنان: 1_ الوزن الشعري. 2_ الوزن اللحني.

1_ الوزن الشعري: لم يستعمل الشعراء الأولون لا القافية ولا التفاعيل، بل التزموا بالمقاطع فقط. لكن بعضهم تمسك بحرفٍ من حروف الهجاء في أول بيت من منظوماتهم الشعرية، مثل المداريش التي وضعها مار أفرام. أما الأوزان الشعرية المستعملة في المداريش فهي:

أ_ الوزن السباعي: ويسمى بالوزن الأفرامي، لكون مار أفرام هو الذي استنبطه. ويتألف البيت الشعري من صدر وعجز: 7 مقاطع + 7 مقاطع = 14 مقطعاً. وهذه بعض النماذج من هذا الوزن:

* منو كي " من هو يا ترى ". الردة مؤلفة من بيت شعري واحد، والبيت مؤلف من خمسة أبيات شعرية.

* شميا وأرعا " السماء والأرض ". الردة مؤلفة من بيتان شعريان، والبيت مؤلف من أربعة أبيات شعرية.

* بصلوث كينى " بصلاة الأبرار ". الردة مؤلفة من بيتان شعريان، والبيت مؤلف من أربعة أبيات شعرية.

* بريخو مشيحا " تبارك المسيح ". الردة مؤلفة من بيتان شعريان، والبيت مؤلف من أربعة أبيات شعرية.

ب_ الوزن الخماسي: ويسمى بحر بالاي[12] نسبة على ناظمه بالاي. وهو مؤلف من 5 + 5 = 10. وتنطبق عليه ثلاثة أوزان هي:

1_ روميه دماريكول " على رب الكل ". الردة مؤلفة من بيتان شعريان، والبيت مؤلف من ستة أبيات شعرية.

2_ صليوا صمح " أشرق الصليب ". الردة مؤلفة من بيت شعري واحد، والبيت مؤلف من ثلاثة أبيات شعرية.

3_ إتعير شاهري " استيقظوا أيها السهاد. الردة مؤلفة من بيتان شعريان، والبيت مؤلف من بيتان شعريان.

ج_ الوزن الاثنا عشري: ويسمى بالوزن النرساوي أو السروجي، نسبة إلى الملفان نرساي أو مار يعقوب السروجي. وهو مؤلف من 4 + 4 + 4 = 12. وله خمسة نماذج من المداريش هي:

1_ بريخ دوطيبو " تبارك يا من بنعمته ". الردة مؤلفة من بيتان شعريان، والبيت مؤلف من بيتان شعريان.

2_ إيل آلاها " أيها الرب الإله ". الردة مؤلفة من بيتان شعريان، والبيت مؤلف من ستة أبيات شعرية.

3_ بثح له مارن " أفتح يا ربنا ". الردة مؤلفة من بيتان شعريان، والبيت مؤلف من أربعة أبيات شعرية.

4_ إين مار نشوي " إذا ما نستحق ". الردة مؤلفة من بيتان شعريان، والبيت مؤلف من أربعة أبيات شعرية.

5_ لإماخ مارن " لأمك يا ربنا ". الردة مؤلفة من بيت شعري واحد، والبيت مؤلف من ثلاثة أبيات شعرية وقفلة ذات أربعة مقاطع.

د_ الشعر مزيج من الوزن السباعي والوزن الرباعي: وله نموذجان من المداريش:

1_ عيتا بوش ليخ بشلاما " وداعاً يا أيتها الكنيسة ". الردة 7 + 4 = 11 ومؤلفة من بيتان شعريان، والبيت 7 + 4 = 11 ومؤلف من بيتان شعريان.

2_ كهني قوشتا " يا كهنة الحق ". الردة 4 + 7 = 11 و 4 + 7 وتقفل الردة على جملة خماسية المقاطع، والبيت مؤلف من 4 + 7 و 4 + 7 ويقفل البيت على جملة خماسية المقاطع.

وهناك ثلاثة أوزان مختلفة هي:

ه_ حونين حنانا " حنانك يا حنان ". الردة 5 + 5 = 10 مؤلفة من بيت شعري واحد. والبيت الأول 5 + 7 = 12 مؤلف مـــن أربعةأبيات شعرية + 5 قفلة. والبيت الثاني 5 + 6 = 11 مؤلف مـــــــــن أربعة أبيات شعرية + 5 قفلة.

و_ لاربع بنيان " إلى أربعة الأقطار ". الردة 5 + 5 و 5 + 4 أو 3، والبيت 4 + 6 + 4 بيتان و 4 + 8 + 4 و 5 + 5 و 5 + 3.

ز_ برا دشين " أيها الابن الذي صالح ". الردة 3 + 2 + 3 مؤلفة من بيتان شعريان، والبيت 3 + 2 + 3 مؤلف من أربعة أبيات شعرية.

2_ الوزن اللحني: ويعرف بـــالكلدانية بـــ ريش قالا وهي جملة من كلمتين تعني " رأس المقام ". وهذا المصطلح ينطبق على الوزن اللحني للمدراش. ويقتبس هذا الوزن إما من الكلمتين اللتين تتصدران " الردة " عونايا مثل بصلوث كينى " بصلاة الأبرار "، وإما من الكلمتين اللتين تتصدران البيت الأول من المدراش مثل: تهرا ربا " عجب عظيم ". وعلى هذا المدراش تنهج مجموعة من المداريش في نفس اللحن.

يبلغ عدد المداريش في كتاب الحوذرة " مدار السنة الطقسية " بأجزائه الثلاثة 106 مدراشاً، وفي كتاب طكسا دعنيدي " طقس الموتى " يبلغ عدد المداريش 139 مدراشاً.

فيصبح عدد المداريش في طقس كنيسة المشرق 245 مدراشاً، ترتل حسب 18 وزناً لحنياً تسير على نهجها أوزان لحنية أخرى، بدون الخروج عن إيقاعها أو نغماتها، وهي عشرون وزناً لحنياً " ريش قالا ". فيبلغ عدد الأوزان اللحنية " ريش قالا " المستعملة في طقس كنيسة المشرق 38 وزناً لحنياً.

ختاماً يصح القول أن السلالم في كنيسة المشرق تحوي الأبعاد الطنينية، لكن لم تكن الأبعاد الموسيقية ثابتة، ولم تلمسها يد علمية. ولم يقم فيها موسيقيون يبتكرون ويؤلفون، لذلك بقيت السلالم على حالتها القديمة.[13]

وفي القرن الماضي جرت محاولات فردية من بعض رجال الكنيسة من كهنة وشمامسة، حيث قاموا بتسجيل الألحان الكنسية على اسطوانات ومن ثم على كاسيتات بغية المحافظة عليها نذكر منهم: المطران إسطفان بابكا[14] والمطران جبرائيل كني[15] والمطران قرياقوس موسيس[16] والمطران أفرام بدي[17] والمطران شموئيل شوريز[18] والخور أسقف أفرام رسام[19] والخور أسقف يوحنا جولاغ[20] وغيرهم الكثيرين. وكان هؤلاء يملكون أصوات شجية. ومع الأسف أن أكثر تسجيلاتهم فقدت أو تلفت.

ختاماً يحدونا الأمل الوطيد أن يجهد المختصين في هذا المجال من رجال الكنيسة الضليعين في الألحان الطقسية، العمل على أرشفت الألحان الطقسية بشكل علمي ومنظم، وتنقيته من الشوائب الدخيلة عبر العصور، وذلك بالعودة إلى الينابيع. ليعمم بعد ذلك على جميع مراكز كنيسة المشرق الكلدانية المنتشرة في العالم، ويعمل به بإلتزام وأمانة. وبذلك نستطيع المحافظة على هذا التراث المجيد، ليبقى أرثاً ثميناً ومتألقاً للأجيال عبر العصور.